بقلم الوجدان

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۞ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٤-٢٧]

وتوارى عن الأنظار

من واقع سورية : الأستاذ

الأخ ن. أبو جهاد

كان شديد الإعجاب به إلى درجة تقارب التقديس ، وهو يعلم أنّ أستاذه أشدّ ما يكون إنكاراً لتقديس الأشخاص ، أحياءً كانوا أم أمواتا .. وكيف يقبل من طلبته ذلك وقد تجسّد فيه التواضع بعينه ؟ .. أحبّوه وأحبّهم .. وكان فيهم واحداً منهم ، إلاّ أنّه يفرض احترامه بعلمه الغزير ، وقدرته على نقل فكره إليهم .. وعلى نقل الكثير ممّا يجيش في قلبه أيضا

ومع إعجابه بغزارة علمه ، ولين جانبه ، وبراعة طريقته في التدريس .. فقد كان يسخر بينه وبين نفسه من أفكاره وتصوّراته ، وهو يبدي استياءه ممّا آل إليه حال الكثير من الطلبة ، وإنكاره لاندفاع بعضهم في اتجاهات يقول بانحرافها ، ويدعوهم إلى التبصّر فيها وفي أنفسهم ، وإلى التفكير بأوضاع بلدهم ، وإلى الرجوع لتاريخهم .. وإنهم مثله ينكرون تلك الأوضاع ، ويرفضونها ، ويجلّون التاريخ ، ويردّدون الحديث عن صفحاته المجيدة .. ولكن كيف يستجيب لما يقول أستاذه من بعد وهو عنده مغرق في الأوهام ، بعيد عن واقعية العصر ؟ ..

وكثيراً ما ساءل نفسه ، كيف يمكن لهذا الأستاذ الجامعيّ مع علمه وسعة اطّلاعه وعمق تحليله للأمور أن ينخدع بتصوّرات دينية وأفكار مثالية ، فلا يرى إمكانية لتغيير واقع البلاد والناس إلاّ من خلالها ؟ .. إنّ الواقع كلّه قائم على المصالح .. وهو يدعو إلى إنكار الذات ، على الطمع والجشع .. وهو يدعو إلى التضحية والفداء ، على غلبة القويّ .. وهو يدعو إلى الإيمان ، على التقدّم الحديث .. وهو يدعو إلى الفضيلة

يخيّل إليه أنّ أستاذه من عالم آخر .. جميل جميل ، ولكن أنّى له أن يقوم اليوم والحياة العصرية معقّدة أشدّ تعقيد ، والتطوّر السريع أبرز ميزاتها ؟ .. فليبحث أستاذه عن الخير .. في السماء ، أما هو .. فإنّه يريد العيش علـــى وجـــه الأرض ، يريد حريته وكرامته وأمنه وخدمة قضايا بلده .. في مواجهة الحكام ، نعم ، ولكـــن بأســـاليبهم الدنيويـــة نفسها ، فليس يحارب الطغيان إلاّ سلاحه

وكان يحدّث نفسه وهو ذاهب إلى قاعة المحاضرات ، بما أثاره أستاذه من خلال تلميحاته وإشاراته المستمرّة مـــن تساؤلات في نفوس الطلبة طوال الشهور الماضيات .. عن أولئك الذين يقاتلون في كلّ مكـــان ، ولا يُعـــرَف لهـــم مكان .. بدعوى رفع الظلم وإقامة حكم الله في الأرض .. ويردّد لنفسه ، هيهات لهـــم تحقيـــق مـــا يريـــدون .. أفيواجهون الحكم العاتي القائم بوسائلهم البسيطة المحدودة ؟ .. إنّهم أفراد قليلون ، والحكم جادّ في ضـــربهم حيـــث يظهرون ، بل إنّه ليضرب كلّ من يؤيّدهم أو يتعاطف معهم أو يشكّ في انتمائه إليهم أدنى شكّ ، فينكّل بـــالجميع دون تمييز أشدّ تنكيل .. وسيزولون وتزول أعمالهم عاجلاً أو آجلاً

صحيح أنّ الطغاة يكذبون المرّة بعد المرة وهم يدّعون السيطرة في كلّ مكان ، وقد أفلتت الأمور من أيـــديهم ، ولكنّ الحاكمين مع اعتيادهم الكذب لا يردعهم رادع عن استخدام قوتهم للاحتفاظ لأنفسهم وللمنـــتفعين حـــولهم بالامتيازات الظالمة .. وسيتمكنون يوماً ما من القضاء المبرم على أولئك المجاهدين

وأظلمت الصورة أمام عينيه .. كيف لو تحقق لهم ذلك بالفعل ؟ .. أيّ مصير ينتظر البلاد والشعب ؟ .. مـــن ذا يصدّهم عن مزيد من الطغيان والبطش وارتكاب الجرائم آنذاك ؟ .. وهل من سبيل إلى التغيير غير هذه الـــسبيل ؟ .. ولاحت له نظرة أستاذه المتفائلة بالمستقبل .. أيّ مستقبل وأيّ تفاؤل ؟ .. وتذكر بعض كلماته المطمئنة الهادئـــة .. مهما جرى ، فالله قادر على أن يقبض لدينه على الدوام من يحميه وينصره

ووصل إلى مقصده ، وراعه أن يرى قاعة المحاضرات هائجة مائجة ، قد اختلط حماس الطلبـــة الـــشباب فيهـــا بأصوات من هنا وهناك تدعو إلى الهدوء والتفكير المتزن .. ماذا حدث ؟ وأتاه الجواب من أوّل زميل صادفه ، لقـــد سرّحوه .. سرّحوه من منصبه الجامعيّ كما سرّحوا سواه ..

وغلا الغضب في صدره ، وهاج في نفسه الإحساس بالرغبة في الانتقام .. ولكن كيف ؟ .. وما عساهم يصنعون بأستاذه ؟ .. هل اعتقلوه ؟ .. هل سيحاكمونه محاكمة صورية فيقتلونه تحت ستار قضاء مزيّف ؟ .. أم يقتلونه تعذيباً كما فعلوا بغيره ؟ .. أم يزجّون به في سجن فلا يعرف له مصير من بعد ؟ ..

وطمأنه الزملاء .. إنّهم اكتفوا بتسريحه ، ولئن مضى إجراؤهم دون احتجاج فسيتمادون أكثر وأكثر .. وتقلّبت الآراء بين داعٍ إلى اعتصام ، وداعٍ إلى تظاهر ، وداعٍ إلى إضراب عن الدراسة .. ولكن ماذا ينفع ذلك كله مع سلطة

فقدت صوابها وبدأت تخبط خبط عشواء في ضرباتها الانتقامية في كل اتجاه ؟ .

وكان الاعتصام ، وكان التظاهر ، وكان الإضراب .. وشعر مع رفاقه بنشوة انتصار عميقة وهم يرون أستاذهم بعد أيام بينهم من جديد ، يلقي محاضرته عليهم أشدّ اطمئناناً وهدوءاً وأقدر على الالتحام بهم ممّـــا كـــان .. وقـــد تعانقت نظراته المعبّرة مع نظرات الفرحة المنبعثة من أعماقهم .. و لم يتعرّض بكلمة واحدة إلى ما جرى معه ، لكـــنّ مجرّد وجوده كان تعبيراً يفهمه الجميع ، وقد شملهم الشعور بأنّ المعركة الدائرة معركة الجميع ، وأنّ المصير المترتّـــب عليها مصير مشترك

وأحسّ بنفسه يزداد قرباً من أفكار أستاذه وتصوّراته ، وراودته نفسه مراراً أن يلجأ إليه يوماً فيسأله النصح لمـــا يفعل ، إنّه لا يكاد يطيق أن يستمرّ هكذا .. في دور المتفرّج بانتظار النتيجة ! .. صحيح أنّه لا يتوقّع انتصار أولئـــك الذين سمّوا أنفسهم الطليعة المقاتلة أو المجاهدين لكنّه يتمنّى انتصارهم في أعماقه .. ويعلم أنّ الشعب كلّه يتمنّى ذلك أيضا

وعقد العزم ذات يوم فخرج مبكّراً من منـــزله ، واتجه إلى منـــزل أستاذه .. كثيراً ما قصده في مسألة دراسية ، فعلام لا يقصده في هذه المسألة المصيرية ؟ ..

وسارع الخطى كأنّه يريد أن يسابق عقارب الساعة ، وتلفّت حوله وقد أحسّ أن العيون المنبثّة في كـــلّ مكـــان ترصد حركته ، وتحصي أنفاسه ، وتكاد تمزّق عن صدره الحجاب لتطلع على مشاعره وأفكاره

حتى إذا وصل إلى مقعده ، وألقى نظرة على بيت أستاذه ، شعر بقدميه تتخاذلان عن حمله من حيث لا يدري ، ورأى جمهرة من الناس متجمّعين على الرصيف أمام البيت .. واقترب يجرّ خطاه جرّاً وقلبه يضرب في صدره أشـــدّ الضربات ، ونظر فرأى امرأة قد تعلّق بثيابها ثلاثة أطفال .. إنّه يعرفها ، يعرفها بثوبها الطويل وحجابها فوق رأسها .. لكنّه لم يرها من قبل هكذا ، قد ملأت الدموع عينيها ، شدّت على أحد أطفالها بيد وامتدت الأخرى تتلمّس جسداً مسجّى على الرصيف أمامها .. ورآه

رآه .. لا يستره سوى سروال داخلي وبقع من الدماء في كلّ جزء من جسده

رآه .. لا يكاد يستبين من ملامح وجهه إلاّ عينين جاحظتين وبقايا خصل شعر انتزعت من رأســـه واختلطـــت بدماء جراحه

رآه .. ممزّق اللحم إلى أعلى ساقيه ، وأعلى ذراعيه ، وقد قطعت يداه من فوق الرسغين ..

رآه .. رأى منظراً تجسّد له فيه حقد الطغيان ووحشيته على امتداد السنين الماضيات كلّها .. لكنّه كان أعجز عن أن يحجب عن ناظريه الحقّ البيّن متجسّداً في بسمة باقية على فم الشهيد تسخر من الطغاة الحاقدين وتنطـــق بآيـــات الخلود للحق رغم الباطل وأهله

رآه ورأى فيه الجواب على كلّ تساؤلاته .. فرفع هامته إلى العلياء كما لو أراد التحليق بنفسه بعيداً ، ثم تـــوارى عن الأنظار .. يردّد القسم ألاّ يعود إلى الظهور من جديد إلاّ شهيداً مشاركاً في دفع ضريبة الجهاد ، أو فـــرداً مـــن الأفراد الذين يكتب لهم أن يحملوا مشعل النصر القريب بيد من حديد